لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

(الجزء ٦ من السنة ٦ عن حزيران سنة ١٩٢٨)

الاخطل

Al-Akhtal.

بقلم الاستاذ الشاب مدرس الادب العربي في المدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية

— ١ —

لعل الاخطل اكثر الشعراء الاسلاميين اتصالا بالعصر الجاهلي في اغلب نواحيه ، إن لم يكن في كل نواحيه ، ولعل القدامى لم يخطئوا حين قالوا : لو ادرك الاخطل الجاهلية لما فضله احد في الشعر . وما عساك تبغي من شاعر انتهت اليه البلاغة الجاهلية في فنه وموضوعه ونزعته. ثم اضاف اليها عصارة الحياة الاسلامية في اولها ، اي حين كانت الحكومة العربية والدولة الاسلامية خالصة العروبة والدين ، لم تشبها حضارة فارس واليونان ، ولم تتورط فيما تورطت فيه من السياسة الفارسية والنزعة الغريبة ايام بني العباس . فان نحن عرضنا اليوم لدرس هذا الشاعر الفذ فانما ندرس النفس العربية في بداوتها من جهة ، وفي فنونها الادبية من جهة ثانية ، وفي اسلوبها الحكومي او السياسي من جهة ثالثة ، ثم في صلابتها الخلقية والدينية آخر الامر . ولقد يخطىء المؤرخون الذين يعتبرون رجال التاريخ وحدات مستقلة عن الدنيا كأنهم هبطوا من السماء،

او كأنهم مضارب صحراوية لايتصلون بالحياة التي عاشوا في جوانبها وتأثروا بمظاهرها فكانوا هم مظهرها ، كما قد يخطئون حينما يصلون الرجل بسني حياته فقط او بعصره الذي عاش فيه . وفي الحق أن رجال التاريخ الادبي او الفلسفي او العلمي ترجع حياتهم في بداءتها الى ما قبل عصورهم بل الى اقدم عصور التاريخ البشري ما دمنا نؤمن بنظرية الارث العقلي وتواصل الجهود العالمية ، فيكون الفرد العلمي منا صلة بين الماضي والمستقبل، لانه ثمرة السابقين ومقدمة اللاحقين . وهكذا نجد الاخطل في شعره ومذهبه الفني .

— ٢ —

ففي خلافة عثمان بن عفان ، وفي جهات الجزيرة الفراتية بين تغلب نشأ الاخطل نصرانيا كأغلب قومه يحترم دينه لحد ما ، غير متأثر بتلك الديانة الاسلامية التي تزخر حوله وتقوم عليها الدولة الجديدة والحكومة الفتية ، وهذا يدل على احترام الاخطل النصرانية دينه ودين آله ، ثم يدل كذلك على تسامح الحكومة الاسلامية والشعب المسلم ، فلقد كان النصارى يعيشون آمنين ناعمين ليس للنعرة الدينية ذلك الشأن الذي يحول بين القلوب ويفرق النفوس ، بل نزيد على ذلك ان الاخطل كان محترما مقدما لدى حكومة امية ، وان كان سبب ذلك مذهبه الاموي في الشعر ونصرته دولتهم امام اعدائهم من الشيعة والخوارج . ولاجل ان نفهم مذهب الاخطل في الشعر وفي السياسة العصبية يجب ان نرجع الى الزمن الجاهلي لنعلم ان اشهر القبائل العدنانية ثنتان : مضر وربيعة ، ومن ربيعة بكر ثم تغلب قبيلة الاخطل ، وبين مضر وربيعة منافسة عديدة منذ القدم ظهرت آثارها في المهاجاة بين جرير والاخطل ، كذلك كانت منافسة بين بكر وتغلب وحروب في الجاهلية امتدت عصبيتها الى ما بعد الاسلام ومن غريب الامر ان يحتفظ الاخطل بعصبيته الربعية وان ينسى الفرزدق مضريته وينضم الى الاخطل ليقف في وجه جرير المضري ، كما قد يكون من الغريب ان ينسى الاخطل نفسه وقبيله امام القرشيين الامويين فيضرب بهم سائر عدنان ثم الانصار من اليمن ، ولكن التفرق السياسي في ذلك العصر هو الذي حكم على هؤلاء الشعراء بالتنابذ كما يحكم على الصحف العصرية الان فتتهارش وتتسابب !!!

— ٣ —

وكيف اقاد الاخطل شعره ؟ وهنا ايضا سنعود الى العهد الجاهلي فنرى مسألة أخرى غريبة : نرى ان مدرسة مضرية — أستاذها أوس بن حجر ، ومن تلاميذها زهير والنابغة ثم كعب بن زهير والحطيئة — تعتمد في فنها الشعري على امور ظهرت واضحة في آثار تلاميذها حتى لتشعر انهم جميعا صورة واحدة يأخذ بعضهم من بعض . من هذه الامور التأني في عمل الشعر وتهذيبه قبل إذاعته ليكون محكم النسج ، قوي الاسر ، لا اضطراب فيه . وانت تعرف حوليات زهير وقصائد النابغة والحطيئة ، وتشعر بما فيها من استواء واحكام . وكذلك كان الاخطل يهذب شعره فامتاز بجزالته ، وقوة استوائه ، وأسره ، وكان يبقي من القصيدة ثلثها وينفي سائرها . ويمكنك أن تقرأ قصيدة :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأدركتهم نوى في صرفها غير

التي يمدح بها عبد الملك بن مروان لتعرف أثر التهذيب وابداع الصنعة الفنية ، ومن تلك الامور العناية بانواع التشبيه والمجاز والكناية . ويعتبر عهد هذه المدرسة اقدم العصور الصحيحة لهذه الفنون البيانية التي ظهرت آثارها بعد في شعراء العصر العباسي بعد ما نقلها اليهم الاخطل ، والحطيئة ، ومروان بن ابي حفصة وغيرهم . ولا يزال رجال البلاغة الى اليوم يستشهدون ببيت زهير:

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله وعري افراس الصبا ورواحله

ولا تكاد تخلو قصيدة الاخطل من هذه الانواع البيانية .

ومنها الاعتماد على المحسنات فيما يذهبون اليه من تشبيه ومجاز . فكانهم يريدون نقل الطبيعة الى اساليب القول كما ينقلها الراسم في لوحته . كذلك يتبعون الامور الواقعة والحوادث فيصورونها كما هي مرتبة حقة لا مبالغة فيها ولا زيادة . ويمكنك ان توازن بين زهير والاخطل في صدر المعلقة ، وفي قصيدة الاخطل التي سبق مطلعها .

وهذه الميزات تلفتنا الى امرين هامين : احدهما — انها تمثل الشعر العربي في اول اطواره نضجه حيث يعتمد على الطبيعة والحس دون الخيال البعيد الذي لا يظهر إلا في الاطوار الاخيرة بعد النضج العلمي والفكري بانتشار العلوم

والثقافة ، وثانيهما ـ انها ساعدت في اثبات كثير من الشعر الجاهلي حين عرض له الشك والانتحال امام مذاهب النقد الحديثة .

فلستكشاف هذه المدرسة المضرية كان ذا اثر ثمين في تحقيق شعر تلاميذها ، وفي اقامة الفنون البيانية في فجر التاريخ الادبي .

نقول ان الاخطل درس في هذه المدرسة المضرية واخذ عن تلاميذها ، فكان شعره صورة صادقة من شعرهم ، ولو لا شيء من موضوعاته الاجتماعية والسياسية والتاريخية لاضيف شعره الى الجاهلية دون خوف من اصول الفن !

ولم يقتصر الاخطل على احتذاء هؤلاء في طريقة التشبيب ، واخذ المعاني وترتيبها وتهذيب الشعر واحكامه ، بل تعدى ذلك الى معارضة قصيدهم واخذ عباراتهم برمتها ونصها .

عارض النابغة في داليته ، وعارض كعبا في لاميته ، وعارض زهيرا في اكثر شعره ، واخذ منه الشطرة والعبارة واحتذاه حتى في اجزاء القصيدة الواحدة . ترى ذلك اذا قرأت شعرهم جميعا ، ولو لا خوف الاطالة لوضعت يدك على امثلة كثيرة .

ووجه الغرابة في ذلك ان الاخطل ربعي فكيف يأخذ شعره عن مضر ؟ قد يكون سبب ذلك ان ليس لربيعة شعر جاهلي صحيح يأخذ عنه الاخطل ، وقد يكون السبب ان الشعر المعروف لربيعة مهلهل النسج ضعيف الاسر لم يرق الاخطل فيحتذيه ، فاختار الشعر المضري نموذجه فأفاد منه شعره . واتماما للموضوع اذكر الاعشى وهو ربعي يقرب مذهبه من مذهب المضريين ، ولعل الاخطل اخذ عنه شيئا واحدا موضوعيا وهو القول في الخمر . واما من عدا الاعشى من شعراء ربيعة فشعرهم مضطرب النسج .

— ٤ —

بعد ان نبغ الاخطل وجد في قومه شاعرا هجاء ايضا هو كعب بن جعيل التغلبي ، اشتبك معه الاخطل في الهجاء فاخافه الاخطل ، واحتاج يزيد بن معاوية الى شاعر يرد على الانصار عدوانهم فذهب الى كعب فأبى وخاف معاوية ولكنه دله على الاخطل ، يريد ايقاعه في الشر ، فكان الخير في ذلك للاخطل

إذ اتصل بعد بخلفاء امية وكان فيما بعد شاعرهم المقدم .

ولشرح ذلك ايضا يجب ان نعود الى العصر الجاهلي وصدر الاسلام . فقد كان بين اليمن والعدنانيين عداوة سياسية جاهلية ازدادت منذ ابعد الاولون عن الحكم الاسلامي بعد وفاة الرسول وحصر الحكومة في قريش . ثم انتقلت العداوة بين البيوتات العدنانية او المضرية ، فكانت منافسة بين القبائل المضرية ، وكانت بين بيت هاشم وامية ، ظهرت واضحة حين وقف علي ومعاوية كل لصاحبه ونتج عن ذلك انتقال الحكم الى بني امية على يد معاوية بن ابي سفيان .

وجد الامويون انفسهم امام اعداء عديدين : اليمنيون ومنهم الانصار سكان المدينة حين ظهر الاسلام والقبائل العدنانية الاخرى ، ثم الهاشميون من قريش وكذلك الخوارج الذين اتعبوهم كثيرا ، فلم يكن من معاوية إلّا انه تألف القبائل العربية ، وهدأ العصبيات مدة حكمه . فما هو إلّا ان مات حتى ظهرت العصبيات شديدة ، وكانت لها نتائج سياسية وادبية معروفة .

ولم تكن صلة الاخطل بيزيد بن معاوية إلّا ظاهرة من هذه الحال السياسية التي تقسمت العرب واعادت اليهم حمية الجاهلية الاولى . فوقفت الاحزاب تتحارب وتتنافس حتى قضت على الحكومة الاموية اولا وعلى الدولة الاسلامية آخرا . وكان لابد للعصبية الاموية من شاعر ينصرها ، وصحيفة تدفع عنها . والصحف الكبرى في ذلك العهد ثلاث : جرير والفرزدق والاخطل . فأما جرير فناشىء لم يظهر بعد على انه متأثم متحرج ، فكيف يقف مع امية في وجه بيت هاشم بيت الرسول ؟ فاعتدل ولم يذم الهاشميين ، كما انه مدح الحكومة طلبا للمال والاحتماء بها . واما الفرزدق فكان شيعيا وان مدح الحكومة احيانا او حملته الحكومة على مدحها ونفحته بالمال اتقاء لسانه وشره ، فلم يبق امام البيت الحاكم سوى الاخطل الذي لا يعنى بالمسألة الدينية الاسلامية . كما لا تهمه الحكومة ونوعها . فوجد فيه الامويون طلبتهم ، واضافوه اليهم وسموه شاعرهم واحتملوا ان يشرب ويدخل ثملا بل ان يشرب في منازلهم وان يدل عليهم ، كل ذلك لانه صحيفتهم ومادحهم الخاص . فضربوا به جريرا والفرزدق ، واغنوه بالمال الجزيل . واما حكايته مع يزيد بن معاوية فتلك ان عبد الرحمن بن حسان

ابن ثابت الانصاري شبب برملة بنت معـــاوية واخت يزيد ، فوسع ذلك حلم معاوية ، ولكن يزيد حمل الاخطل على هجاء عبد الرحمن هذا والانصار فقال من ذلك :

ذهبت قريش بالسماحة والندى واللؤم تحت عمائم الانصار

فذهب زعيم الانصار إذ ذاك وهو النعمان بن بشير الى معاوية وحسر عن رأسه وقال له : اترى لؤما ؟ فقال : لا بل ارى كرما وخيرا . ما ذاك ؟ قال : زعم الاخطل ان اللؤم تحت عمائمنا ... وكاد الاخطل يقع في شر لو لا ان يزيد انقذه ، فمدحه ومدح خلفاءه حتى مات في خلافة الوليد بن عبدالملك سنة خمس وتسعين هجرية فانظر تلك العصبيات وآثارها ، وانظر دالة الانصار على الحكومة ، وانظر الفرق بين دهاء معاوية وقسوة يزيد الذي ضرب الانصار في المدينة بعد موت ابيه في واقعة «الحرة» المشهورة انتقاما منهم منذ ضربوا قريشا في وقعة بدر ايام الرسول حتى قال احد شعراء امية في نكبة المدينة :

ليت اشياخي ببدر شـهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

— ٥ —

عاصر الاخطـــل جريرا والفرزدق ، وهاجى جريرا وغيره ، وفخر عليهم ومدح الحكومة الاموية حين غضب عليها الشيعة والخوارج وغيرهم . وكان هؤلاء الثلاثة هم الصحف السياسية للعصر الاموي واقوى الشعراء فنا واعلاهم مكانة ولعـــل الاخطل يمتاز بانه اصدق تمثيلا للسياسة الاموية ودعوتها في استحقاق الخلافة والملك . ولكن مسألة الهجاء كانت مشغلتهم جميعا ، لان الخلفاء كانوا يزيدونها لهيا ليشغلوا الشعراء والقبائل بانفسهم حتى لا يفرغوا للحكومة ويناقشوها الحساب على قاعدة « فرق تسد » فانضم الفرزدق الى الاخطل وتهافت عليهم عشرات الشعراء يهجون جريرا ، فأخلهم جميعا ؛ ولم يثبت له إلّا اصاحباه هذان على ان الفرزدق كان افخرهم لحسبه ونسبه وكان جريرا اسيرهم شعرا واسلسهم اسلوبا واكثرهم فنونا حين كان الاخطل اوصفهم للخمر واحسنهم مديحا واطهرهم هجاء .

وهنا يمكننا ان نوجز القول ونختصر فنون الاخطل الرئيسية في المدح

والهجاء والفخر ووصف الخمر . هذه هي الابواب التي تضم شعر الاخطل. وقد يدخل فيها شيء من النسيب والوصف والحكمة على الطريقة الجاهلية ، ونحن نميل الى ان شيئا من شعره قد ضاع ، وان ديوانه المطبوع لايجمع كل آثاره ، ولكنه كان احسن حظا من صاحبيه اللذين لم ينالا هذه العناية بحفظ شعرهما واتقان طبعه ونشره للناس .

ولعلنا نكون قد المنا المامة كافية بهذا الشاعر الممتاز. بقيت مسألة الموازنة المفصلة بينه وبين صاحبيه ، ولما كانت هذه في حاجة الى تفصيل شديد ودراسة مطولة لا تسعها الان صفحات (لغة العرب) الغراء ، فارى إرجاءها الى غير هذا العدد .

(لغة العرب) لم تقرأ في حياتنا كلها مقالا يحلل « نفسية » الاخطل وشعره وعصره وآراءه مثل المقال الذي حبك عراه الاستاذ الكبير الشايب. طالعنا كتبا جمة للناطقين بالضاد ولعلماء الشرقيات فلم نجد فيهم من اجاد في كلامه واصاب في تفاصيل ما حلله اصابة صديقنا الجليل استاذ الادب العربي في المدرسة العباسية الثانوية في الاسكندرية . فلا جرم ان الاخطل تجلت عظامه في مرفده عند علمه ان مثل هذا الكاتب الفذ عرفه لابناء هذا العصر بهذا الكلام الوجيز المعجز واغنى الناس عن مطالعة المجلدات الضخمة التي كتبت او تكتب عنه وهي لاتفيد عشر معشار ما جاء في هذه القلادة التي طوقنا بها جيد هذا الجزء . فنطلب الى حضرة الاستاذ الكبير ان يتم بحثه هذا ويوافينا بما بقي منه ليكون احسن ذخر للقراء وللاجيال المقبلة .

﴿ البرجاس ﴾

« البرجاس : غرض في الهواء يرمى به . قال الجوهري : واظنه مولدا » . (لسان العرب) وفي البرهان القاطع : هو بالفارسية « دار كدو » وبالتركية: « قباق اغاجي » وهو رمح او سارية في اعلاها غرض . واكثر ما يكون كرة من ذهب او فضة . تتخذ غرضا فيرميها الحذاق ، واذا اصابها احدهم بسهمه — بشرط ان يكون على جواد ناهبا الارض — يكافأ وتكون الهدية جام ذهب او فضة وحصانا وخلعة . » ا ه . وهو من اليونانية Purgos .